مطالعات فى العهد القديم

الخطيئة والمعـــرفة

للاستاذ محمود الشرقاوى

فى أمسية من أمسيات هذا الشتاء المنقلب المضطرب القاسى وكان يوماً غائماً لم تظهر له شمس، دخلت إلى خزانة كتبى وأنا قلق النفس أبحث عن شىء ولكنى لاأدرى ماهو، وأشعر فى داخل نفسى بشىء من ذلك الشعور الحزين الغامض الرقيق لم أدر له سبباً ولم أدرك له تعليلا، اللهم إلا أن يكون مشاركة الطبيعة فيما هى به من الظلام والكآبة والقلق، أو هو انسحاب مافى السماء من غيوم إلى مافى النفس من إحساس.

وقفت أمام الخزانة لأختار كتاباً، من غير قصد، أى كتاب، أمرى بالمطالعة فيه عن نفسى وأصرف عنها هذه الكآبة الغامضة الرقيقة.

هذا تفسير الكشاف، نعم، ولكنه يحتاج إلى تدبر وإمعان وتهيء، وليس نشاطى الآن مما يساعد على التدبر والامعان.

هذا ديوان البحترى، نعم، ولكنه شعر، وما أنا بسبيل البحترى وما فيه من صياغة ونصاعة تحتاج إلى نفس ناعمة كشعره لا إلى نفس غائمة تنشاها هذه السحابة من الحزن.

هذا هو الكتاب المقدس بعهديه، القديم والجديد، نعم. لأقرأ فيه شيئاً. ولا بد أن ينسكب شىء مما فيه من الايمان والاطمئنان على مافى نفسى من الجزع والقلق.

• • •

وأخذ الرب الاله آدم، ووضعه فى جنة عدن ليعمل ويحفظها وأوصى الرب الاله آدم قائلا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة «معرفة الخير والشر» فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت

وقالت الحية الخبيثة للمرأة «أحقاً قال الله لاتأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية، من ثمر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لاتأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه «تنفتح أعينكما» وتكونان كالله عارفين الخير والشر»

قد تكون الخطيئة إذن هى الطريق للمعرفة؛ والثمرة المحرمة قد تخرج الأنسان من الجنة إلى محنة الحياة ولكنها تخرجه أيضاً إلى عالم المعرفة والأدراك والتجربة والنور، أو كما قالت الحية تفتح العين وتجعل الأنسان كالله عارفا الخير والشر، ولذلك عندما أخذت المرأة (من الثمرة وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان) وكانا من قبل أن يأكلا (كلاهما عريانان، آدم وامرأته، وهما لايخجلان) وعند ذلك خاطا (أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر)

كانا عريانين من قبل الخطيئة ولكنهما لايخجلان لأنهما لم يدركا عريهما، فلما أكلا من الشجرة المحرمة عرفا الخير من الشر والحسن من القبيح وأدركا عريهما فاكتسيا.

وهذه ثمرة الخطيئة. المعرفة.

ولذلك قال الرب وهو ينادى آدم فى الجنة (أين أنت؟ فقال. سمعت صوتك فى الجنة فخشيت، لأنى عريان فاختبأت) فقال له: من أعلمك أنك عريان! هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها!» فقد عرف آدم اذن — كما قال الرب — عريه من خطيئته.

• • •

وكانت هذه الثمرة، أو هذه الخطيئة، سببا فى أن غضب الله على آدم وزوجه وعلى تلك الحية الخبيثة التى أغرتهما بالمعرفة ليخطئا أو جعلت المعرفة سبيلا لمقارفة الخطيئة، فعاقب الله الثلاثة على السواء، وكان عقاب آدم وحواء أن يخرجا من الجنة، ولعن الله الأرض كلها بسبب آدم وجعله (بالتعب يأكل منها كل أيام حياته وشوكا وحسكا تنبت له ويأكل عشب الحقل). وبعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب وإلى التراب تعود).

وقد نال آدم وحواء هذا الغضب كله من الله وخرجا من الجنة مطرودين، ولكنهما أدركا «معرفة الخير والشر» وهذه